

الباب الثانى

أصل الانسان والتطور الخالق

وقوة الحياة ...

ذكرنا فى الباب الاول قصة اعتقاد شو ، وكيف ظهر فى العالم الخارجى ، وهذا الباب يحاول تفسير هذا الاعتقاد لأهميته ، ولأنه مفتاح لغز المفاق .

ولنبداً القصة بأن نضرب للقارىء مثلاً فنقول : إن رجلاً يعتقد اعتقاداً جازماً بقصة الخلق وأسبابها ، ويقبل النتائج المنطقية التى يتوصل اليها بطريق التفكير المنظم والبحث المستمر ، لا شك أنه سيفعل مثلما فعل جورج برنارد شو . وماذا عساه أن يفعل ؟ إنه لا شك سيجاهر الناس بهذا الرأى ويعززه ببراهينه وأدلة التى ترصل اليها ، وقد تكون هذه البراهين والأدلة دامغة أو واهية . فإن كانت دامغة ثبتت فى أذهنة الناس وسيبت للعقائد الأخرى عواصف وزوابع ، وقد تغلبها من جذورها وتلقى بها بعيداً إلى الأعماق والأغوار وتحتل مكانها رديحاً من الزمان ، وقد تستمر فى مكانها خالدة صامدة ، وقد تهب عليها عواصف وزوابع جديدة تلقى بها إلى جوار ما مات من عقائد وما اندثر منها فى بحر الفناء ..

وقد تكون هذه البراهين واهية لا تلبث أن تظهر فى الأفق ثم لا تحتل الظهور لحرارة الجو الذى تعيش فيه هنيهة أو هنيهات فتموت كالهوام أو تضمحل كالبحار ...

وإن رجلاً آخر ، يدفعه حبه لمعرفة الحق ، فيقبل الحقائق ، ولكنه يشك فى القصة ذاتها ، لا شك أنه أيضاً سيفعل مثل ما فعل شو . . .

ذلك لأن الشك سيساوره ، ويتسلط على ذهنه ، وينظر إلى الحقائق نظرة كاهن ربية وغموض . وهو محق فى شكه ووجهه ، لأن قصة الخلق لا تزال غامضة ، وإن المقدمات والشروح التى عرضها الفلاسفة والمفكرون ، وعرضتها الكتب المنزلة ذاتها لا تزال هى الأخرى فى غموض وغموض .

وما جاء في هذه العروض والشروح والمقدمات ، وفي هذه الكتب جميعها غير حوادث سردت في هيئة حقائق عساها تلقى أمامه بقبس ضئيل من نور يبدد له ظلمات المستقبل ..

ومن حق القارئ أن يتمهل معي ، ويسير وإياي متبعا الكلمات بدقة ، حتى لا يضيع منه مفتاح السر المطلق ، ويتمثر بالصعوبات التي ستصادفه في طريقه الوعر الشائك ، ومن هذه الصعوبات :

(أولا) صعوبة الرأي المبتسر الذي يظهر دائما عند ما يفسر رجل عقيدة رجل آخر لانه من الطبيعي أن الرجل الذي يدين بعقيدة يخالف عقيدة ذلك الرجل الآخر ، لا شك أنه إذا أراد أن يصفها ويعطيها حقها من التحليل ، فهو يعمد جاهداً إلى تشويه معالمها والخط منها ..

ولنضرب لذلك مثلاً فنقول : إن لبرنارد شو عقيدة خاصة أوجدها لنفسه ، وهو وإن كان قد نشأ مسيحياً ، في أسرة مسيحية متعصبة ، يحاول أن يجد لمذهبه مكاناً مرموقاً . فيشوه عقيدة المسيحيين السامية ، ويحط من شأنها وشأنهم فيقول :

« يعتقد المسيحيون بأن العالم خلق عام ٤٠٠٤ قبل المسيح . وأن الجحيم معناه نار كبريت حامية موقدة إلى الأبد ، وأنه إذا كان الحبل بلا دنس فمضى ذلك أن الجنس خاطيء ، وأن المسيح ولد من عذراء بتول لم تعرف رجلاً ، وأن هذه العذراء من نسل عذراوات أخرى تسلسلن في خط طويل ينتهي بحواء . وأن الثالوث المقدس تجسدت له ثلاثة رهوس وهي في الواقع رأس واحدة ، وأن الخبز والنيذ في مذابح روما المقدسة يصيران لحماً ودماً . وفي الإنجيل ، لا يزالان في طريقة غامضة ، يتحولان حقاً أو لا يتحولان بتاتاً . وأن الإنجيل كتاب مقدس على دقيق منزّه عن الخطأ ، وكتاب تاريخي ،

وحصن حصين للخلق القويم . والبشر كذابون مراءون وقتلة
سفاكون ...

ثم يستمر برنارد شو ليعرض عقيدته فيقول :

« إذن فالمدينة الحديثة لا يمكن أن تغنم السلامة على أيدي اناس يعتقدون
في هذه الاشياء . أما المتبصرون سواء أكانوا رجال دين أو ملاحدة،
فإنهم يخرجون بشيء واحد ، وهو أن اعتقاد كهذا لا يمكن أن ترتكز
عليه دعائم الدين ..

فتعليم الطفل لا يمكن أن يأتي بشمرة طيبة إذا ترك في أيديهم ..
وإذا كانت المذاهب المناهضة بعضها لبعض ككنيسة إنجلترا ، أو
كنيسة روما أو الكنيسة اليونانية وغيرها تصر في محاولتها أن تتسلط
على العقل البشري ، هذا التسلط الغريب في حدود هذه الاعتقادات
الطبيعية ، فيجب أذن ألا يندس هؤلاء في المدارس حتى يكتشفوا
الروح الحقيقية التي تختفي في كل تعليم أو مذهب ... (مقدمات
صفحة ٥١٧)

وهذا يصور الاتحاد أجل تصوير ، أو لعله يصور الصعوبة في
ثوب قشيب . وهو على كل حال كفر وإلحاد . ولستكني وعدتك أيها
القارئ أن أكون نزيها معك ، فرغم أنني قبلي أرثوذكسي ، احترم
عقيدة ديني وأتفاني فيها ، كما تحترم أنت دينك وتتفاني فيه ، سمحت
لنفسى أن ألقى بعقيدتي جانباً ، وأشرح لك الموقف شرحاً دقيقاً
مفصلاً مبتدئاً بمهاجمة برنارد شو لعقيدته الديانة المسيحية . وواجب
المؤرخ الحق ، والباحث النزيه ألا تؤثر فيه عواصف الاتحاد أو
يستشيط غضبا من طعن غيره دينه أو عقيدته ، وذلك عملاً على اكتمال
نضجتنا الذهني والفلسفي ...

وأنت تعرف أنه من العسير أن ينزع الإنسان منا جلد صاحب

الاعتقاد بسمولة أو باين . أما الطريق الصحيح الذى سنشره فهو
طريق البحث بحذر شديد .

(ثانيا) صعوبة التعرف فيما يسميه الناس « اعتقادا » فلقد أصبحت كلمة اعتقاد
كلمة غنى عليها الزمان ، وأنها وكلمة « مذهب » كلمتان أو شكنتا أن
تفقدتا معناهما . حتى أن كثيرا من الناس أصبحوا لا يعتقدون
فى الاعتقادات والمذاهب التى ورثوها فضعف إيمانهم ، وفترت هممتهم
وتحبطوا فى وهاد الإللك والكفر خبط عشواء .

ومن العسير أيضا أن نفسر حال الاعتقاد عند هؤلاء الذين يعتقدون الشك
مذهبا على الدوام ، اذا لم يرتكن على أسباب ونظريات .
ولكن من السهل أن أفسر لك مذهب برنارد شو واعتقاده فى الوجود ، أو
على الأقل أصف لك بنود هذا الاعتقاد وصفا مجملا شاملا .
ومن الضرورى جدا أن أطلعك على مدى تأثير هذا الاعتقاد على برنارد شو
نفسه وتسارطه عليه ، حتى أنه أصبح يدين به . .

فكثيرون من الرجال لهم آراء خاصة فى التطور أو فى قوة الحياة ، مثلهم فى
ذلك مثل برنارد شو . ولكنهم لا يعتقدون هذه الآراء من حيث هى مذاهب
واعتقادات . وفى هذه الحالة يخالفهم شو . . .
إنهم يؤمنون بالتطور ، وهو يعتقد فى التطور كذلك . .

وهم يعتقدون أن التطور شىء حدث منذ ملايين السنين ، وليست لهم به أية علاقة
ولكنه يعتقد أن التطور شىء يحدث اليوم ، وله به كل علاقة . بل وإن التطور هو
نفسه ، ، وهو التطور ذاته . . ، وكلا الاثنين يكونان الحياة . .

واعتماد برنارد شو فى « قوة الحياة » يعتمد على نظريات . أما نظراته إلى
« التطور الخلاق » فيختلف عن نظرة برجسون اليه . ويظهر أن الاثنين توصلا إلى
نقط مماثل بعضها البعض وإن كان كل منهما مستقلا عن الآخر تمام الاستقلال . وأظهر
كل واحد منهما هذه النقط بطريقة الخاصة التى عرف بها . ولكن « شو » كان الأول
فى الميدان ومعه مئات من الحقائق والأمثلة . يضرب خيامه ليبشر بدينه الجديد

في صورة جامدة من كل زاوية من زوايا اهتمام البشرية بمثل هذه الموضوعات الفلسفية ...

وجاء برجسون أخيراً بنظريات مشابهة وبفكرته الفذة عن الزمن . وبحذر شديد وضع قصته في صورة مجردة ، وابتدأ بوصف إلهة أسماها « لادوريه » ، وأبرز معها إلهاً غريباً أسماه « الناشط المرمدي » وجعلهما مسئولين عن كل شيء . أو حرفياً عن كل شيء . وكان هذا براعة منه وحذقا .. فالإلهة لادوريه في هيئتها مخلوقة فاتنة ساحرة . ولكن لا أثر لها في رأى برناردشو عن التطور الخالق . أو أنه لا يدرك أهميتها ، أو أهمية الصعوبات التي تدخل في دائرة النظريات التطورية عند ما يهمل أصحابها وضع كايح للزمن الذي يفقدون زمامه بعدم ترو لإنتاج الرجل والاميبا .

أما برجسون فقد كان على علم بكل شيء ، ولكن شو لم تستهوه غير الحقائق فتركها للزمن يرعاها ويتعمدها ويفعل بها ما يشاء ..

وفسكرة « التطور الخالق » تعتمد ، من الناحية الأولية ، على الحقائق الموضوعية من وقت لآخر ، موازنة نظرية تطور الأنواع التدريجي . ولا علاقة لها بالحقائق الأخرى التي لها أثر مباشر في التطور التدريجي للعالم جميعه ..

وكان ظهور هذه النظرية حوالى عام ١٨٥٩ عند ما طبع العلامة تشارلس دارون كتابه المشهور « أصل الأنواع » ولأول مرة في التاريخ طرحت نظرية التطور على بساط البحث العلمى المحض ..

وبالطبع كانت هناك محاولات متعددة لوضع النظرية وضعا صحيحا مرتكزا على قوانين علمية لا تقبل المناقشة بأعوام وقرون ، ولكن هذه المحاولة قدر لها أن تجد آذانا صاغية ونفوسا واعية ، فهزت رتاج العالم وأصبحت حديث أوروبا فترة طويلة من الزمن ..

وكان دارون من علماء المدرسة القديمة . وقد قال في صدد كتابه هذا ونظريته : هذا ما يحدث ، وهذه هي أسباب الحدوث ..

وترك العبارة لغيره ليجتهد فيما يحدث وفي أسباب الحدث ١.

وكان أيضاً مزهواً نخوراً لبراءة النظرية وما سببته من قلق واضطراب في النفوس وما يحوط عالمها من غرائب وعجائب . وكيف أن الحقائق التي جمعها تمتشع مع نظريته في سهولة ولين ، ولكنه لم يفقد نفسه في سبيلها ويتنحى عن عقيدته الأصلية - المسيحية - كما فعل برنارد شو ١٠٠

وذلك لأنه عرف أنه مهما صدق من نجاح في تفسير النظرية . فلن يستطيع بحال من الأحوال أن يجيبك على هذا السؤال الذي يظهر لك كأنه لا شيء . وفي مدلوله معان كثيرة . وهذا السؤال هو مثلاً : ما هي الدجاجة ؟ ولماذا هي دجاجة ؟ وكثيرون من المعجبين بالنظريات الفلسفية كنظرية التطور مثلاً لا يجدون صعوبة تذكر في الرد على هذا السؤال وغيره من الأسئلة المشابهة ، لأنهم يتفالمون وراء ظل كثيف من شروح الفلاسوف صاحب النظرية . وكلها شروح دورية لا تبدى بدليل ولا تنتهي بإقناع ..

وهؤلاء المعجبون المفتونون بسحر النظرية بدأوا يساهمون بقسط كبير في الصحافة العلمية في تفسير كل ما يتعلق بالجزئيات والتدريجات وغيرها .. وبين علم دارون وعلم هؤلاء نمت فروع كثيرة زرعها هؤلاء الذين أرادوا أن يحصلوا على شيء ذي فائدة يفسر القوي فيدجون الفروض العلمية في هيئة دين ١١

ولعل هذه الأغصان الكثيرة التي تشعبت فجأة ونمت في شجرة الكفر والإلحاد استهوت أنظار الكثيرين منهم صمويل بكار . وأبس . وويلز لوقت قصير ، وبرجسون وغيرهم ..

ولكن القصة فيما يظهر ، أو كما ظهرت ، كانت مقلوبة الأوضاع . فالبطل في أعلى القمة وحيد متفلسك بينما في أسفل الشجرة شيطان يتخبط في الجذور . وإذا تتبعنا تاريخ هذه الجذور وجدتها ترجع إلى الوراثة خمسة آلاف سنة ، ثم تمتد بك إلى ملايين السنين ثم إلى ما وراء الدهور والمصور ثم إلى ما وراء الوراثة ، حتى يتشعب بك الطريق فنضل معالمه وتخبط في يدها لا نقف لها على أفق . ويستمر

بك السير في ضباب الزمن الكثيف حتى تقف أو تتخيل شيئاً واحداً لا معنى له ، فلا هو مكان ، ولا هو زمان ، ولكنه شيء معقد بينهما لا أجزاء له ، ولكنه احتمال لا صفة له على الإطلاق . غير أنه حركة دائبة لا تتوقف . هذا الشيء هو السر المطلق ، لا يمكن وصفه ، وإن كان في الإمكان تصويره في غير وضوح في هذه الاحقاب البعيدة الغور ، الغامضة المعالم .. يمكننا إذن القول بأنها قوة تغل في مرجل على الدوام ، أو دوامة مستديمة لا نعرف طاقتها ، أو قوة أزلية سرمدية دائمة ..

ومن هذه القوة الهائلة التي لا تتوقف أو يعرف مدارها ، لا يمكن أن يكون هناك مجال للقيم أو للشر أو للخير . لا شيء غير القوة المتبرمة الدائمة الفوران السرمدية ..

ويجب ألا نخلط بين هذه القوة وبين غيرها من القوى الميكانيكية والآلية التي ولدت في أول طوفان تطايرت منه الذرات وتناثرت في الفضاء فشكلت الذرات .

ولا يجب أن نحققها بالقوة الضرورية التي ظهرت فيما بعد على هذه الأرض كقوة أساسية عملت بتوسع في الذرات التي خلقتها مصادفة . أما القوة الرئيسية فلها مكانها الخلقى البعيد . وهي السبب السهر الذي أوجد هذه القوى الإضافية .

وهي ليست منفردة بذاتها عن هذه القوى الإضافية . ولكنها عن عمى تحافظ على نفسها ، مندججة تمام الاندماج في ذاتها ..

إذن فعلى ضوء هذه النظرية ، انطلقت الخلية الأولى ، مرتدشة متذبذبة في الحياة على هذا الكوكب ، أنه مصادفة ، لأن قوة الحياة نفسها لم تكن لتعرف شيئاً عنها . لقد ولدت مصادفة ..

ولا هي ذاتها ، ولا الذين نبهوها كانوا يعرفون عنها شيئاً ... وكل ما عرفوه أنهم ظهروا في الحياة ، وتركوا مع الزمن ثم تدهوروا وماتوا .

فعلوا ذلك من أجل المحافظة على هذه القوى المجربة العمياء التي تذبذبت هنا وهناك ، وعملت طريقها في كل مكان ، تحرك الاغصان الأخرى عاليا وعاليا وعاليا .
قوة لا تموت ، وهي تنقل من طور إلى طور من الوالدين إلى الأبناء ، ومن الأبناء إلى الأحفاد ، وتنشعب إلى فروع لا آخر لها ، وتورث مخلوقاتنا صفات متعددة أخذت كل صفة تحافظ على بقائها على تعاقب الأجيال . .

إذن في بدء عصر المخلوقات ، كانت الارتباكات شديدة ومتقلبة ، والتطورات المستمرة تعمل عملها في المخلوقات الجديدة . كما كانت التيارات الشديدة التي هبت على العالم كمصور الطوفان والعمر والتليج ناجمة عن هذه الارتباكات .
وقد عملت على انقراض أنواع من النبات والحيوان ، كما كانت الوحوش الكبيرة الهائلة الحجم تفتس بعضها البعض ، تدفعها هذه القوة الجبارة التي عملت عملها فيها وأورثتها صفة حب الحياة . .

وقوة الاندفاع هذه ، قوة التسايط ، ما هي إلا قوة ضرورية إيجابية . يدفعها دافع التمتع بالحياة إلى تنازع البقاء .

فأكله الأعشاب تزحف على قوائم أربع ، وقد اعتراها جوع شديد يدفعها هاتف داخل قسراً إلى القضاء على هذا الجوع بأكل أوراق الشجر التي سبق أن أهمل أكله أجدادها ، ولكنها لحاجتها تندفع إليه باقتراس ووحشية فتلتهمه عن آخره وتتزاحم عليه بالمناكب هي وزميلاتها ، فمنها من يموت جوعاً وتطوؤه الحيوانات الأخرى ، ومنها من يتغلب فينجو من الهلاك ويقدر له البقاء والتناسل ومعه صفات جديدة يورثها نسله .

وتوالى القرون وانطمست معالمها مع الدهر . ووجد النسل الذي تسلسل من هذه الحيوانات التي كالخت في الحياة أن أوراق الأشجار أصبحت بعيدة المنال فيعود إلى طريقه سلفه ، السكفاح المعيشة ، ويندفع بغريزته إلى مد رقبتيه محتالاً للوصول إلى أوراق النبات فينجح في بلوغ الفروع العليا للشجرة مثلاً ، وهو وذريته قد يهلكون ، إن أجلاً أو عاجلاً ، في الطريق نفسه ، ولكن رقبة

أحدها لا تلبث أن تنحور فتتقسم فيها الخلايا ، وتمتد الرقبة تدريجيا حتى تولد الزرافة برقبة طويلة جداً .

وهكذا تنحرك الحياة من دوحه إلى دوحه ، بقوة وعزيمة تنجدد على الدوام لتكتسب حصانة ومرونة .

وتستمر الحياة في سيرها تحمل معها آثار القوى المنصرفة في القرون الغابرة في حربها مع الطاقات الجديدة لقوى الحياة .

ومن الغرائز التي تورثها الحياة لنوع معين من الناس ، فتخلقهم رجالا أفاذا يفهمون الحياة الفهم الصحيح ، هؤلاء هم المفكرون الذين تكسبهم الحياة فكرا لودعيا جبارا ، فتخرج من أدمغتهم الأفكار وهم هنا يبتدعون ويخلقون ...

في نهاية القرن التاسع عشر اكتشف بعض هؤلاء القادة ماهية الغرض الاسمي ، وفي أوروبا وأمريكا ظهر أفراد نادوا بأن الجنس أعظم وأفضل من الفرد ، الاصل أعظم من الفرع ،

وهؤلاء الرجال الجدد الذين سموا بالتطور الخالق سموا عظيماء هم لاشك ورثة الاجيال الذين بهم تهدف قوة الحياة إلى السكمال المشهود .

هذا هو أساس عقيدة برناردشو وأساس فلسفته ، أو بمعنى آخر خلاصة لخلاصة قصة الخلق الجديدة ، أو تفسير النفس للتدرج الأدنى .

وهب برناردشو نفسه لهذا الاعتقاد ، لأن القصة مسلية وجذابة وطريقة . وكانت في بادئ الامر لا يعرفها الا نفر قليل من المثقفين ثقافات عليا في إبان عام ١٨٨٠ ولكنها اليوم أصبحت نظرية فلسفية يدرسها نفر كثير من محبي الوقوف على أسرار الكون والوجود ، بل لقد تقدمت النظرية تقدما ملموسا وأصبحت في مثل شهرة جورج برناردشو !!

وعلى كل حال فنظرية التطور الخالق نظامها وتدرجها خلال الاجيال محاولة ركيكة لكنها نافعة لوضع مقدمة لمقدمة كتاب برنارد شو المشهور الرجوع إلى متوشالغ ، ذلك الكتاب الذي يجب أن يعود اليه طلاب المعرفة إذا أرادوا أن يدرسوا اعتقاد برنارد شو مرة أخرى .

أو فليعودوا إلى برجسون ليعرفوا أن :

« الحياة هي محاولة لتحرر الطاقة . وهي تستخدم القوى والمادة وتحرر في حركة حرة مستمرة . وبفعلها هذا تصبح حرة على الدوام . وأول ما تعمله أن تنقل حركتها إلى المادة . وهذه الحركة تتحول إلى نظام شمسي لتخزن في المادة الكالوروفيلية طاقة حرارية لتخرجها في انبثاق وانفلاق نحو خالق الأشياء . . . كما أن القوة الدافعة للحياة تعمل في طريقها بدون توقف . وإن كانت في جوهرها قوة متعثرة تقوم وتكبو ، وتندرب وتضطرم ، ولكنها تحاول مرة وراء مرة . . . »

أو فليقرأوا للعلامة روزنبرج هذا الرأي :

« إن حاسة جديدة للحياة تدفع نفسها بفرائزها البدائية إلى السطح . وتتخذ في ذلك هيئة أو هيئات معينة . طريقة جديدة للحياة تولد ثم تبدأ تتحول إلى هيئات أخرى متباينة ، بقيم معينة ، وممارسة دائبة النظام . . . »

أو فليعودوا إلى عدد مجلة « الطبيعة » الصادر في ٧ ديسمبر عام ١٩٣٥ ليقروا :
« إن العلم لم يححر الفكر الآدمي من ربة التقاليد الخسب ، بل جعله يدرك التطور الدائم ، ووهب الإنسانية فلسفة جديدة للحياة . . . »

وإذا أراد المطلع أو القارئ المزيد ، فسوف يجد أن برجسون عند ما غدا فيلسوفا كبيرا ، يشق طريقه بهدوء ، ويصير قصة الخلق في بوتقة ، ويصيفها في شكل جذاب يأتي بكلمات متدفقة كالسيل المنهمر ، ولكنها منفردة المعاني ١١ .

كذلك سيجد أن روزنبرج يقفز إلى المسرح ليعرض على الناس منه قصة قوة الحياة للملايين البشر في قصته الخالدة « أسطورة القرن العشرين » ، وفيها يقص قصة نشاط خلية جديدة تطرق بمطرقة عنيفة تحاول جاهدة أن تدمج أرواح الناس في روح جنس واحد عظيم . . . إلى غير هذه الدراسات الغريبة التي يفضل الفرد في ديارها الواسعة وأشواكها الكاوية . .

ولعل رأى برناردشو إذا قارناه بهذه السلسلة الطويلة من آراء الفلاسفة المتطرفين لوجدناه أقوى منها ، وألفناء أجدر بالدراسة . وإن كان يسير في هالة من غموض كمعظم الفلاسفة والمفكرين . وقد يطلق سهامه وأفكاره من نفس القلعة التي احتفى

بها لا مارك ودارون ولكن بطريقة تخالف طرقهم . فهو يؤمن بما يدعيه ويحاور الناس به . . أما الآخرون فما كانوا يعتقدون بقصة قوة الحياة بكل ما عندها من طاقات حرارية وجهد متواصل . . . أو بمعنى آخر إنهم لم يمزجوا رأيهم بعقيدتهم الأصلية . . أى أنهم لم يتحولوا من عقيدتهم الأولى إلى الجهر بدينهم الجديد . . . ويظهر أن برنارد شو فى بادىء أمره قبل قصة الخلق أو ما يشبهها ، ثم سأل نفسه هذا السؤال :

كيف جئت ١٩

وإذ رأى أن الكامتين ثابتان لا تتحركان من مكانهما أو تفصحان أو تبدليان بشىء عاد إلى القصة يمحسها من جديد ، ويقلبها على جميع الوجوه ، ويظل على حاله هذا يواصل أبحاثه ، ويتحيف الألم فى سبيل الوصول إلى شىء معين . فلا تسعفه الذاكرة بشىء . . . ولا يجديه التخمين والحدس . ولكنه يشعر الحاجة بأنه أصبح رجلا فى المجتمع الإنسانى ذا مكانة ملحوظة . . . ظهر فى عالم مستمر الحركة دائما لا يتوقف . تطلع برنارد شو أمامه فإذا بلافتة كبيرة كتب عليها بالخط العريض : هذا الطريق إلى السماء ، فوقف يتخيل طريق السماء . . أين هو وكيف يكون . . ثم ذكره ذلك بمقال قديم قرأه عام ١٨٨٠ يقول فيه صاحبه : اتبع ضميرك فهو طريقك الوحيد إلى السماء . . .

ومن هنا نشأ النضال واستقام البحث . . .

إنه عنوان مفر لرجل حديث العهد بكل شىء . . . يتخبط فى وهاد الحياة على غير هدى . . .

قال على نفسه أنت يفسر لغز الحياة ، ويكشف القناع عن سرها الرهيب من عام ١٨٧٥ إلى يومنا هذا ، وهو فى كفاح مستمر مع تلك الفكرة التى خامرت ، وابتغى بها ، وأخذ يدونها فى كتبه ومقالاته وأحاديثه الخ . . .

وكتاباتنا كلها مجموعة حقائق علمية لتجربة رجل واحد عاش مع الحياة . . . وفى كثير من الأحيان نجد أن ملاحظاته كانت من القوة بمكان أو من الدقة البالغة بحيث لا يتكرها عليه إنسان . .

وقد يقول قائل : لا يمكنك أن تطلق على هذه الأبحاث والتجارب أبحاثاً
وتجارب علمية بحجة لأنها تفتقر إلى معمل وإلى قوانين رياضية خاصة ، وثمة قول
خاطئ من أساسه ، لأن كل رجل يدون تجاربه الدقيقة وبطريقة صادقة لا تعرف
الالتواء ، لا يمكن أن يرقى إليها الشك أو يتطرق إليها المكذب أو المغالاة . وهذا
هو إذن العالم الحق . . . والشاعر المزهف الحس . . . وبرنارد شو يجمع بين الاثنين
العالم والشاعر ، عالم دقيق الملاحظة ، وشاعر صادق الحس . . . وأعماله وآثاره
أكبر دليل قوى على صدق ما نقول . . . ومسرحياته تشهد لك بالنبوغ والعبقرية
وتنوع التجارب وتعددتها . . .





برنارد شو للرسام اوجستس جون